المخطوطات العربية فى باريس

للدكتور محمد حميد الله

التاريخ :

ان صلات فرانسا مع العرب ومع الاسلام قديمة تعاصر فتوحهم الأندلس وما والاها من جنوب وجنوب غرب فرانسا . وقد اكتشفوا حديثا فى نربونه آثار مسجد متهدم من ذلك العصر ، واكتشفوا كذلك سيوفا عربية على البلاط ، بلاط الشهداء ، حيث وصل العرب مع عبد الرحمن الغافقى ، ما بين طور وبواتيه . وتوجد كذلك كنائس فى جنوبى فرانسا استعملت فى بنائها أعمدة وأحجارا عليها كتابات عربية كأنها من المساجد والجوامع المهدومة .

ولكن اعتناء الفرنسيين بالعلوم متأخر بمئات السنين . ولم يحدث هذا الا بعد ما أنقذوا أنفسهم من ملوك الطوائف والقرى ومن حروبهم الأهلية المستمرة فحينئذ أسسوا ملكية كبيرة ، وبدأوا يشتغلون بالكتب والآثار العلمية . نعم لم يعتن بها العامة فى ذلك الوقت ، فقد كان « سر » الكتابة منحصرا فى دائرة محدودة من أهل الدين ، اللهم الا من كان من الوزراء وكبار الموظفين .

وتكاد تكون أكثر المخطوطات العربية فى باريس مجموعة فى المكتبة الأهلية . وهى تعتبر من كبار مكتبات العالم كمية وكيفية . اذ يوجد فيها الآن أكثر من ستة ملايين من الكتب المطبوعة والمخطوطة .

فى أول الأمر لم تكن هذه المكتبة معهدا للعامة ولم تكن كذلك فى

باريس . كانت بادىء ذى بدء مكتبة خاصة للملوك فرانسا . ولا نعرف متى كانت بدايتها . نعرف على كل حال أن شارل الخامس ، المعروف بشارل العالم ، الذى كان ملك فرانسا فى السنة ١٣٦٤ م كانت عنده مكتبة فيها عدد لا بأس به من المخطوطات لا تعرف كثيرا عنها ، ولا نظنها تحتوى على الكتب العربية . ثم أصدرت الحكومة الفرنسية أمرا فى سنة ١٥٣٧ أن كل كتاب يصدر فى فرانسا يجب أن يرسل منه نسخة الى « مكتبة الملك » . ويسمى هذا « أمر مون بيليه (Montpellier) » . ويذكر مؤرخو المكتبة الأهلية الباريسية أن مكتبة الملك صارت منذئذ مكتبة عمومية . ولكن لم تقدر العوام أن تدخلها وتستفيد من خزائنها الا منذ سنة ١٧٣٥ . وكانت المكتبة تفتح حينئذ للعامة مرتين فى الأسبوع . أما الآن فتفتح كل يوم ، سوى يوم الأحد من الساعة التاسعة الى الثامنة عشر بدون عطلة . وسوى يوم الأحد وبعض الأعياد النصرانية أو الرسمية تقفل لمدة أسبوعين كل سنة أولهما يوم الاثنين الثانى بعد عيد الفصح (فى شهر أبريل) .

كانت المكتبة أولا فى بلدة بلوا (Blois) ، ثم انتقلت الى فونتينبلو (Fontainebleau) ، ثم بعد ذلك الى باريس حيث هى الى الآن .

أول ما نسمع عن المخطوطات العربية فى هذه المكتبة هو منذ القرن السادس عشر للميلاد ، فان المكتبة لما كانت فى ذلك العصر فى بلدة بلوا ، كانت تحتوى على ست مخطوطات عربية . ومكتبة هنرى الثانى (حكومة ١٥٤٧ — ١٥٥٩) فى بلدة فونتينبلو كان فيها أربعون من الكتب العربية . أما مكتبة زوجته (كاترين ميديسيس (Catherine de Médicis)) ، فقد كان فيها أيضا خمس مخطوطات عربية .

لما اعتنت حكومة فرانسا فى القرن السابع عشر بتجديد تنظيمات الدوائر الرسمية عامة ، أرسلت مكتبة مازارين (Mazarine) فى السنة ١٦٦٨ مئة وأربعا وتسعين من المخطوطات العربية الى « مكتبة الملك »

لتتبادل معها كتبا أخرى . ثم ارسل الرئيس جلبير غولماز (Gilbert Gaulmin) مئتين وأربعا وسبعين مخطوطة عربية الى مكتبة الملك

لما تولى كولبير (Colbert) الوزارة فى فرانسا ، وكان محبا للعلوم والفنون (فقد دعا العلماء والفضلاء من الخارج الى فرانسا فتوطنوا هناك واشتغلوا بخدمة العلم فى وطنهم الجديد) ، أرسل وكلاء الى الشرق الأدنى فجلبوا من استانبول وبلاد أخرى ست مئة وثلاثين من المخطوطات العربية الى مكتبة الملك بين السنة ١٦٧١ و ١٦٧٥ .

هكذا كانت أوائل القسم العربى من المكتبة الأهلية الفرنسية . ويوجد هناك فهرسة خاصة للقسم العربى مؤرخة سنة ١٦٧٧ ، ونجد فيها ذكر ٨٩٧ مخطوطة عربية . ومن ظريف ما يذكر أن ثلاثة من كتب الدروز وصلت اليها فى السنة ١٧٠٠ م .

ان الأديار والكنائس النصرانية أيضا كانت تعتنى باقتناء الكتب العربية (لأغراض التبشير والجدل الدينى) — لا نذكر منها دير سوربون، فقد صار هو اليوم جامعة باريس (وبقى فى قسم سوربون منها كنيسة سوربون الى هذا اليوم) . ولكن نذكر دير القديس جرماين ديه بريه (St. Germain des Prés) ، المؤسس فى القرن السادس للمسيح على أيدى الرومانيين . وهو موجود الى يومنا هذا فى قلب باريس — كانت فيها من المخطوطات العربية . لما جاء الانقلاب وذهبت الملوكية وأسسوا جمهورية ، أمر أرباب الثورة بضبط أموال الأديار أيضا. فجلبوا من دير القديس جرماين الى المكتبة الأهلية أكثر من ثلاث مئة مخطوطة عربية بعضها نادر .

ولما خرج نابوليون الى معركة مصر ، أرسل من سفره ٣٢٠ مخطوطة عربية الى باريس . وكان فى قنصلية فرانسا فى مصر موظف يشتغل بالعلم اسمه أسلاين شرڤيل (Asslin de Cherville) لما رجع من وظيفته الى باريس ، باع مكتبته الخاصة التى جمعها فى مصر من المكتبة الأهلية . وهذا فى سنة ١٨٣٣ . وكان فيها ١٥٠٠ مخطوطة عربية .

ومن مهم ما دخل فى المكتبة الأهلية المكتبة الخاصة للمستشرق الشهير شيفر (Schefer) . وكان قد سكن سنين طويلة فى الشرق واشترى واستنسخ من الكتب العربية النادرة وغيرها . فاقتنتها المكتبة الأهلية فى السنة ١٨٩٩ .

الفهارس :

ان أول فهرسة علمية تختص بالقسم العربى من المكتبة الأهلية ، وضعها بطرس دياب الحلبى فى السنة ١٦٧٧ . ثم اشتغل بها ديربيلو (d'Herbelot) والشماس رنودو (abbé Renaudot) . ثم استعملوا باروت السورى الذى كان « مترجما فى مكتبة الملك » فى السنة ١٧١٥ . ثم الأب عسكرى المارونى فى ١٧٣٥ . ثم طلبوا المستشرق الطليانى الشهير ميشل أمارى (Michel Amari) ، فقدم الى باريس واشتغل هناك الى سنة ١٨٥٩ . وأخيرا اشتغل الأديب الفاضل دسلاين (de Slane) ، ولكن توفى قبل نشر فهرسته التى طبعوها ما بين السنة ١٨٨٣ و ١٨٩٥ ، فى مجلد ضخم كبير الحجم .

ان فهرسة دسلاين هذه تذكر ٤٦٦٥ من المخطوطات العربية ، وفيها مجاميع كثيرة أيضا ، فيزداد عدد الكتب الخطية على ما ذكرنا . وهى تذكر أولا اسم الكتاب ومؤلفه بالأحرف العربية ، ثم تذكر مزايا المخطوطة باللغة الفرنسية ، ثم تفصل قسم الورق والحجم وتاريخ النسخ وعدد الصفحات وعدد السطور فى كل صفحة . وهذه الفهرسة مرتبة على الفنون تبتدى بالكتب الدينية النصرانية (من تراجم التوراة والزبور والانجيل وغير ذلك) ، ثم جميع العلوم من القرآن والحديث والفقه والكلام والتاريخ والجغرافية والفلسفة والأدب والعلوم الرياضية والطبيعية وغير ذلك . ولتسهيل المشتغلين بها ، يوجد فيها ذيلان : ذيل لأسماء المؤلفين ، وذيل لعناوين الكتب ؛ وهما مرتبان على حروف التهجى . وهذه الفهرسة متقنة ، يجوز الاعتماد عليها ، والغلط والسهو فيها قليل .

ثم نشر بلوشيه (E. Blochet) تكملة هذه الفهرسة فى السنة١٩٢٥ . وكانت المكتبة قد اقتنت أكثر من ألفى مخطوطة منذ نشر فهرسة دسلاين الآنفة الذكر . فقد وصل رقم المخطوطات فى هذه الفهرسة الثانيـة الى ٦٧٥٣ (سوى ما كانت فى المجاميع ، اشير اليها بألف ، ب ، ج الى غير ذلك) . كانت الثروة والعلم قد تقهقرا فى فرانسا بسبب الحروب المستمرة فلم يتيسر لبلوشيه أن يطبع أسماء الكتب والمؤلفين بالأحرف العربية ، بل كتب كل شيء بالأحرف اللاطينية . وانحط كذلك مستوى التحقيق ، فنحن نجد فيها أغلاطا كثيرة .

ومنذ هذا التاريخ الى يومنا هذا فى السنة ١٩٥٦ لم تصل الى المكتبة من المخطوطات العربية الا مئتا كتاب تقريبا . ولكن طبعوا فهرسة ثالثة فى سنة ١٩٥٣ لا بأس بها ، وضعها الفاضل جورج وجده (G. Vajda) . فى قديم الزمان كان الموظفون قد سهوا أحيانا ، فوضعوا الكتب العربية فى أقسام أخرى من المكتبة ، مثل الفارسى والتركى والعبرانى والملايائى . فجمع مؤلف هذه الفهرسة الثالثة جميع الكتب العربية (سوى ما يتعلق بالدين النصرانى) فى مجـلد . وهى أيضـا مطبوعة بالأحرف اللاطينية فحسب . وبلغ عدد ما ذكر الى ٦٨٥٣ من المخطوطات .

ما سوى الكتب :

ان مكتبة فرانسا الأهلية تحتوى على نوادر غير الكتب أيضا مثل النقود والوسامات والخواتيم والخرائط وغير ذلك ، فيها عدد لا يستهان به من المرافق العربية . وكذلك فى قسم المطبوعات يوجد عدد كبير للكتب العربية ، خاصة ما طبع فى أوربا منذ أوائل فن الطباعة .

ويجب أن أذكر أن فيها قسم التصوير على الشريط وعلى القرطاس . وعمله متقن .

وهناك أيضا مدرسة لتربيـة مديرى المكاتب . وكثيرا ما يعمـلون معارض لأصناف المخطوطات ، أحيانا للمسائل العربية والاسلامية أيضا ، مثل تذكار البيرونى وابن سينا وغير ذلك .

وتنشر المكتبة أيضا ، سوى الفهارس ، ما لها قيمة فنية . فنشروا مثلا الصور التى توجد فى مخطوطة قديمة لمقامات الحريرى ، نعرف منها صورة الملابس والمجالس فى بغداد فى القرون الوسطى ، للرجال والنساء والأغنياء والفقراء وغيرهم .

النوادر :

ان نوادر المخطوطات فى هذه المكتبة كثيرة لا يمكن ذكر جميعها . ولكن ما لا يدرك جله لا يترك كله قد طبعوا بعضها ، وبقى عدد لم يطبع الى الآن .

من المهم قطعات القرآن المجيد ، يذكر واضعو الفهارس أنها من القرن الثانى والثالث والرابع للهجرة . وهى على الرق .

وفيها تاريخ ملوك العرب الأولين من بنى هود ، للأصمعى ، بخط ابن السكيت ، المكتوب فى السنة ٢٣٤ . وهى على جلد الغزال المدبوغ ، صار لونه أسمر . وهو صعب القراءة .

وفيها قطعة لكتاب النبات لديسقوريدس ، المكتوب فى جندى سابور وذكر فى الفهرسة أنها من القرن الثانى أو الثالث للهجرة . وسوى جمال المخطوطة ، لها أهمية أخرى : فان المؤلف نقل أسماء يونانية للنباتات بالأحرف العربية ، وكتب مترادفات تلك الأسماء بأحرف أخرى أيضا لم يصل أحد الى الآن الى تعيينها ، فضلا عن قراءتها . وهذا الكتاب أيضا على الرق .

وفيها المدخل الكبير فى أحكام النجوم لأبى معشر البلخى ، المؤرخ سنة ٣٢٥ هـ . وفيها كتاب الكنى والأسماء للدولابى المؤرخ ٣٨١ . وفيها التمهيد فى الرد على الملحدة للباقلانى المكتوب على الرق فى الأندلس فى السنة ٤٧٢ . وفيها كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشى المؤرخ ٤٨٩ . وفيها كتاب ما للهند ، للبيرونى المنقول من نسخة المؤلف المؤرخة ٤٢٣ ، استنسخ فى السنة ٥٥٤ . وفيها مقامات الحريرى ، مصورة بأجمل الرسوم

المؤرخة ٦١٩ . وفيها نسخة القرآن بخط ياقوت المستعصمى مؤرخة سنة ٦٨٨ . وفيها كتب سليمان المهرى وابن ماجد أسد البحر فى سير السفن والملاحة البحرية . وفيها نسخة كاملة جميلة لجغرافية الأدريسى مع خريطة العالم . وهذه الخريطة نشرها بعض الألمان فمما يذكر أن قدماء المسلمين كانوا يحبون التيامن فى كل شىء ولم يريدوا أن يكونوا من أصحاب الشمال . فهذه الخريطة لا تشير الى الشمال ، بل الى اليمين (الجنوب) . ومما يذكر أيضا أن هذه الخريطة لا تخالف كثيرا من أحدث الخرائط الفرنجية من يومنا هذا ، مع قلة الوسائل عند الشريف الأدريسى .

وفيها كتب لها أهمية أخرى ، مثلا بعض تآليف التفتازانى وغيره بخطوط المؤلفين .

ومن المعلوم أن كتاب النبات للدينورى لم يصل الينا أكثره ، وضاع خاصة المجلد السادس منه يحتوى على قاموس لذكر النباتات من حرف السين الى حرف الياء . ويوجد فى المكتبة الأهلية بباريس مخطوطة مجهولة الاسم والمؤلف فى علم النبات ، فيها اقتباسات مهمة عن الدينورى ، خاصة ذكر الموز ، لا توجد عند ابن سيده (كتاب المحكم والمخصص) ، ولا ابن منظور ولا غيرهما ممن نقلوا عن الدينورى مزايا النباتات .

مكاتب أخرى :

يوجد فى فرانسا مكاتب أخرى تحتوى على المخطوطات العربية ، مثل مكتبة مدرسة الألسنة الشرقية ، فى باريس ، ومثل المكاتب فى اشتراسبورغ ، وروان وبلاد أخرى حيث توجد جامعات . والحكومة تعتنى بوضع فهرسة جامعة لجميع هذه المخطوطات العربية فى سائر مكاتب فرانسا . وذكر لى أن هذه الفهرسة ستنشر قريبا .